# من أسرار التكرار في القصص القرآني

د. عبداوي حفيظة

سيقت القصة القرآنية مكررة لتحقيق أغراض دينية بحتة وقد تناولت هذه الأغراض: إثبات الوحي والرسالة وغيرها من الأغراض الدينية، و المراسي الخلقية التي جاء بها القصص القرآني

والتكرار في القصص القرآني لا يقصد به الإعجاز البياني بقدر ما يقصد به التأثير النفسي، و لما كانت ظاهرة تكرار المعاني مؤكدة ومقررة للعقيدة ،كانت أكثر ظهورا في القصص القرآني و البحث في هذه الظاهرة لا يستقيم إلا بمعرفة الظروف النفسية التي تحيط بصاحب الدعوة و أتباعه، و بهذا يتسنى لنا أن نعلم ما وراء عرض القصص وتكرارها من عبر و عظات.

من ذلك ضرب الأمثال للرسول -صلى الله عليه وسلم- وللمؤمنين و من اتبعهم في سبيل الله حتى كان حسن العاقبة لهم، وذلك في قوله تبارك وتعالى: (حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ )[1]، لم يكن سرد قصص الأنبياء بالنسبة للرسالة المحمّديّة موضوعا ثانويا، بل كان يحمل عبرا شتّى، و موعظة للمؤمنين، و عبرة للمشركين[2].

إنّ تكرار القصة في ضروب متنوعة، و بأساليب متعددة إنّما يرمي إلى ترسيخ السنن في النفس، و تثبيتها في القلب من أجل تقوية العقيدة، فلم يقتصر القرآن الكريم على قصة واحدة لأحد الأنبياء ليستدل بها، بل تسرد جموع قصص الأنبياء لتأكيد و تقرير أنها من صنع الله، و لعلّ الهدف من تكرار هذه القصص هو تخويف المشركين وإنذارهم بما جرت عليه سنة الله للمكذبين بالرسل، يقول تعالى متحدثا عن النبيّ نوح – عليه السلام– ( لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ )[3]، و يقول تعالى أيضا مخبرا عن أقوام أخرى كذبوا رسلهم فأخذهم الله بعذاب أليم:

( وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ وَعَاداً وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ )[4].

كما يهدف القرآن من خلال تكرار قصصه إلى بيان وحدة الأديان، ووحدة الدّعوة وتشابه أقوام الرسل في مواقفهم منها كما رأينا فيما عرضناه من قصص؛ يقول عزّ وجلّ في هذا المضمار: ( وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ )[5].

فهذا التوحيد لأساس العقيدة يشترك فيه جميع الأنبياء، وتأتي قصصهم مجتمعة في هذا السياق لتأكيد الغرض المتوخى، وقد قصد القرآن من وراء التكرار في اللّفظ والمعنى إلى تحسيسهم بأنّ ما جاءوا به إنّما هو صادر عن إله واحد، ومتجه إلى غاية واحدة هي التوحيد.[6]

وهكذا نستنتج أنّ تلوين القصص، وما يجمع بينهم من تشابه في المبادئ والأهداف من العوامل المؤثرة على النفس بالموعظة المتكررة، والعبرة المتجددة. ممّا يجعل الإيمان أكثر رسوخا في النفس، فمبادئ الحق و العدل وغيرهما لا تتغير في جوهرها على مرّ الزمان، ومن ذلك ما ورد في الكتاب الحكيم من حديث عن الأقوام المكذبة: ( كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ )[7].

(كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ)[8].

( كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ )[9].

( كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ )[10].

فهؤلاء الأقوام كما نرى وجّهت لهم دعوة واحدة، لكنّهم كذّبوا ما جاءهم به رسلهم واستكبروا، فأخذهم الله بعذاب عظيم، ورغم تباعد أزمانهم إلا أنهم نالوا مصيرا واحدا، حيث كان القوم المكذبين للرّسول المبعوث إليهم مكذّبين لجميع الرّسل، ويتأكّد لنا هذا الاستنتاج ونحن نقرأ بداية كلّ آية من الآيات السابقة، ولنأخذ مثلا لذلك قوله عزّ وجلّ عن قوم نوح –عليه السلام- : ( كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ) ؛ فلمّا كذّبوا نبيّهم نوحا جعلهم الله وكأنّهم كذّبوا جميع الأنبياء المبعوثين، و القرآن إذ يخاطب الرّسل يتّبع صيغة واحدة يمحّي أمامها فارق الزمن و الجنس: ( يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ )[11].

و من هنا يتّضح لنا أنّ التكرار في قصص الأنبياء اقتضى تنوّع الأغراض في كلّ قصّة، و منها غرض التّثبيت لوحدانيّة الله، و غرض التّرهيب و بيان وحدة الأديان و أنّ الله واحد لا شريك له، و أنّه قادر على خرق العوائد، فلقد خلق آدم من دون أب و لا أم، و خلق عيسى –عليه السلام- من دون أب و هذا- لعمري- أكبر دليل على أنّ لهذا الكون ربّا قادر، ففي خلق آدم –عليه السلام- يقول عزّ وجلّ : ( وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ )[12].

وفي خلق عيسى–عليه السلام- يقول تبارك و تعالى: ( إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ )[13].

فالقادر على خلق شخص من دون أب و لا أم، هو أهون عليه خلق شخص آخر من أمّ دون أب[14]، كيف لا و هو ربّ العرش العظيم خالق السماوات و الأرض، الّذي يحيى ويميت، والّذي يخرج الحيّ من الميّت ويخرج الميّت من الحيّ بإذنه فتعالى الله عمّا يشركون.

ولعلّ من الأسرار الجليلة لتكرار القصص هو أنّ أصحاب النبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- كانوا يحفظون القليل من القرآن في الصّلاة، وهذا القليل ينتبهم عن الكثير لتكراره وللعظات الموجودة فيه، ولم يفرض عليهم الرّسول -صلّى الله عليه وسلّم- حفظ القرآن كلّه.

و التّكرار في الأنباء و القصص إنّما جاء نتيجة نزول القرآن الكريم منجّما[15] لأنه لو لم تكن الأخبار مكررّة لوصلت قصّة نبيّ إلى قوم، و قصّة آخر لقوم آخرين، و لما عرفت القصص عند جميع الأقوام، و إذا نحن نظرنا نظرة دقيقة تليق بمقام القرآن وعلوّ شأنه، وجدنا أنّ هناك مغزى من وراء قصصه المكرّر، فالقرآن إنّما يروي أحداث واقعيّة، لا حوادث متخيّلة، وقصصه إنّما سيقت- كما ذكرنا- للعبرة و البداية و بيان جزاء المصلحين وعاقبة المفسدين، و لم تسرد لمجرّد المتعة والقراءة العاديّة مصداقا لقوله تعالى: ( لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ )[16].

و المعروف أنّ أيّ شيء ينسج في قالب قصصي يكون أكثر سريانا في النّفوس، لذلك كان يسوق الأدلة على التّوحيد في سياق قصصي يسري إلى النّفوس من غير مقاومة، و كان تكراره يخطّ في النفس خطوطا تتعمق بعد ذلك شيئا فشيئا فيكون الإيمان، و القصص القرآني لم يذكر لمجرّد العظة و العبرة؛ بل ذكر أيضا لإرشاد الناس وهديهم إلى صراط مستقيم[17].

و قد باين القصص القرآني قصص البشر، من حيث أنّه رغم تكراره لا نجد فيه مللا ولا اضطرابا و نحن نتلوه المرّة بعد الأخرى، و هذا ممّا يعجز أمامه البشر، فلو أنّ أحدهم نسج قصّة ثم أعادها لأحسسنا بهذه الإعادة، ولظهرت عليها علامات الضعف و التفكك، ولكان تكرارها من غير المفيد الّذي يكسو الكلام ثقل، و يذهب عنه رونقه، و القصص القرآني إذ يذكر المعنى الواحد بصور مختلفة إنّما يجلب النّفوس الشاردة الّتي تعشق كلّ ما هو متنوّع وجديد؛ يقول الباقلاني في هذا المضمار: "وكذلك قد يتفاوت كلام النّاس عند إعادة ذكر القصّة الواحدة تفاوتا بيّنا، ويختلف اختلافا كبيرا، و نظرنا إلى القرآن فيما يعاد ذكره من القصّة الواحدة، فرأيناه غير مختلف ولا متفاوت، بل هو على نهاية البلاغة، وغاية البراعة فعلمنا بذلك أنّه ممّا لا يقدر عليه البشر، لأنّ الذي يقدرون عليه قد تبيّنا فيه التفاوت الكثير عند التّكرار"[18].

وبناء على هذا فالقصّة القرآنيّة سجلّ حافل لجميع التّوجيهات الإلهيّة، حيث تصوّر النتيجة الأخيرة لكلّ صراع في سبيل المبدأ و العقيدة، تلك النتيجة هي انتصار المؤمنين، وخذلان الكفرة المكذّبين؛ يقول تبارك وتعالى: ( إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ يَوْمَ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ )[19].

وصدق الله العظيم حين يقول: ( وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ)[20] ، وحين يقول: ( وَنُرِيدُ أَنْ نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ )[21].

**هوامش**

[1] سورة يوسف، الآية: 110.

[2] ينظر: التهامي نقرة "سيكولوجية القصة في القرآن"، ص: 128، 129، 130.

[3] سورة الأعراف، الآية: 59.

[4] سورة العنكبوت، الآيات: من 36 إلى 40.

[5] سورة الأنبياء، الآية: 25.

[6] ينظر: التهامي نقرة "سيكولوجية القصة في القرآن"، ص: 132، 133 و محمّد سعيد رمضان البوطي "من روائع القرآن" تأملات علمية و أدبية في كتاب الله عزّ و جلّ، مكتبة الفرابي، دمشق، د.ط، د.ت، ص193، 194

[7] سورة الشعراء، الآيات: من 105 إلى 109

[8] السورة نفسها، الآيات: من 123 إلى 127.

[9] سورة الشعراء، الآيات: من 141 إلى 145.

[10] السورة نفسها، الآيات: من 160 إلى 164

[11] سورة المؤمنون، الآيتان: 51، 52.

[12] سورة الحجر، الآيتان: 28، 29.

[13] سورة آل عمران، الآية: 59.

[14] ينظر: التهامي نقرة "سيكولوجية القصة في القرآن"، ص: 134، 135، 136 و عبد الرحمان طالب "التربية من خلال القرآن الكريم" رسالة ماجستير في العلوم الإسلامية، إشراف د: عمّار طالبي، 1987م، ص 158.

[15] ينظر: محمّد زغلول سلام "أثر القرآن في تطور النقد العربي" دار المعارف، مصر، د.ط، 1961م، ص 142، 143.

[16] سورة يوسف، الآية: 111.

[17] ينظر: الإمام أبو زهرة "المعجزة الكبرى" القرآن، مكتابته، جمعه، إعجازه، جدله، علومه، تفسيره، حكم القناء به، دار الفكر العربي، د.ط، د.ت، ص 190، 196 و محمّد الغزالي "نظرات في القرآن"، دار الشهاب للطباعة و النشر، باتنة، الجزائر، د.ط، د.ت، ص 110، 111

[18] عبد الرؤوف مخلوف "الباقلاني و كتابه إعجاز القرآن" دراسة تحليلية نقدية، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ط، 1978م، ص: 326. الرماني و الخطابي و عبد القاهر الجرجاني "ثلاث رسائل في إعجاز القرآن"، حققّها و علّق عليها: محمّد خلف الله، محمّد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط: 2، 1387هـ، 1968م، ص 93.

[19] سورة غافر، الآيتان: 51، 52.

[20] سورة هود، الآية: 120.

[21] سورة القصص، الآيتان: 5، 6.